اعتماد الإمام عبد القادر الجيلانى في منهجه الدعوى على النقل عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم

الباحث/ عبد الرحيم محمد مأمون محمد

لدرجة الماجستير –قسم اللغة العربية

تخصص الدراسات الإسلامية

المقدمـة

الحمد لله الذي يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والصلاة والسلام على إمامنا وقدوتنا نبينا وسيدنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا .

أما بعد:

فمن فضل الله Y وكرمه على هذه الأمة المحمدية أن خصها على مر عصورها برجال صادقين ،وعلماء عاملين، ودعاة مخلصين، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فحملوا بأيديهم مشاعل النور، كي ينيروا الطريق للسالكين، ويردوا التائهين الضالين، ويحيوا النفوس التي كادت أن تموت، وهذا يعد من أفضل وأعظم أنواع الجهاد في سبيل الله Y، وهو أيضا من أعظم القربات .

– ولقد كان الإمام الشيخ عبد القادر الجيلانى τ واحدا من هؤلاء الأفذاذ الذين بعثهم الله تعالى كي يجددوا لهذه الأمة دينها، ويعودوا بها إلى صوابها ورشدها عاش τفي القرن السادس الهجري ولقد اختلت في زمنه موازين المجتمع الاسلامى اختلالا كبيرا ، فاقبل الناس على الدنيا إقبالا كبيرا ، وأهملوا الآخرة إهمالا شديدا ،ففسدت الأخلاق ، وانحطت القيم ، فحمل راية الدعوة إلى الله Y ، يرد التائه ، ويرشد الضال ، ويعيد الضائع .

– وظل الإمام الجيلانى τ يدعو إلى الله Y على بصيرة، بمنهج دعوى مستنير ، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، طوال حياته التي استمرت أكثر من تسعين عاما ، لم يخش أحدا إلا الله Y،ولم تأخذه فى الحق لومة لائم، فكان من نتائج دعوته إلى ربه Y أن اسلم على يديه ألوف الناس ، وتاب عشرات الألوف ، فأعاد الاعتدال مرة أخرى ، حتى وضح الطريق وخفت البدع .

– لذلك رأيت أن أقوم بهذا البحث المتواضع عن الشيخ الجيلانى τ،ومنهجه فى الدعوة إلى الله Y، وقواعد هذا المنهج الرشيد ، ووسائله وأساليبه ، حتى نستفيد من منهج الشيخ τ فى الدعوة إلى الله Y ، وخصوصا فى هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن ، وعمت فيه المحن ، وعلت الأصوات التي تلصق التهم بالإسلام والمسلمين ،وكثرت النداءات بالبدع والأهواء، وأنا إذ اكتب هذا البحث أرجوا التوفيق من الله Yأن أوفي الشيخ بعض حقه ، ولا أظنني مستطيعا ، فان أحسنت فمنه Y وحده ،فهو صاحب الفضل والمنة ، وان أسأت فمن نفسي ، وأستغفر الله العظيم من ذلك .

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: أهمية النقل عن السلف الصالح.

المطلب الثانى: نماذج من نقل الشيخ الجيلانى عن الصحابة والتابعين.

المطلب الأول

أهمية النقل عن السلف الصالح[1].

لقد اعتمد الشيخ الجيلانى فى دعوته على النقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم؛ حيث إن فهمهم يعتبر مصدرا من مصادر الدعوة إلى الله تعالى.

إن الأخذ من السلف أمر شرعي أمرنا الله تعالى به، ولا يماري فيه أحد ممن له أدنى بصيرة في فهم الدّعوة إلى الله تعالى، بل لا يخالف في ذلك إلا أهل الأهواء والبدع، كما قال تعالى: ﴿ ٌ ٍ َ ُ ِ ْ □ □ □ □ □ □ □ □ بر □ □ بن بى بيتر □ □ □ ﴾[2].

([1]) السلف لغة: يطلق على من تقدم وسبق من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل.

يقول ابن فارس: "سلف: السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق من ذلك السلف: الذين مضوا، والقوم السلاّف: المتقدّمون ..." (ينظر: لسان العرب ١٥٩/٩، معجم مقاييس اللغة٣/ ٩٥، مادة " سلف").

وفي الاصطلاح : فقد اختلفت عبارات العلماء في بيان المراد بالسلف اصطلاحا، وبيان ذلك كالآتي:

- فمنهم من عرفهم بجيل معين في فترة زمنية خاصة، ويرى أنهم جمهور أصحاب القرون المفضلة من الصحابة الكرام، والتابعين وتابع التابعين.
- ومنهم من يقصر مفهوم السلف على جيل الصحابة فحسب.
- ومنهم من يطلق مفهوم السلف على منهج معين، فمن وافق ذلك المنهج فهو من السلف وإن كان من المتأخّرين، ومن خالف ذلك المنهج فليس من السلف وإن عاصر الصحابة.

(ينظر: الفرق بين الفرق – عبد القاهر البغدادي – ط منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ٢٠٠٢م، صـ ٣٥٢، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد – إبراهيم البيجوري - ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ، صـ ٩١).

وعند تأمل هذه التعريفات؛ نجد أن التعريف الأخير هو الراجح، مع وجود تقارب في التعاريف؛ لأن التمسك بالمنهج القويم الذي كان عليه السلف الصالح حد فاصل بين أهل الحق وبين أهل الباطل من الذين نبذوا الكتاب والسنة، وغير ذالك.

أما التقييد بالصلاح: فهو ميزة تميزهم عن غيرهم ممن خالفوا منهج الوحيين، من الخوارج، والمرجئة، ومن شابههم، لأن هؤلاء الفرق انبثقت في زمن مبكّر.

مسألة: هل نعتبر كلّ من عاش في هذه القرون المفضّلة سلفا يمكن الاقتداء به ؟

الجواب: لا، لما هو معلوم أنّ أئمة أهل البدع والأهواء وجدوا في هذه القرون المفضّلة، ففي العهد الخلافة الرّاشدة، ظهرت بعض الفرق الضالة، مثل الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة ..الخ.

([2]) النساء ١١٥.

يقول ابن القيّم: " فيتّضح من خلال الآية أنها قرنت بين مشاقة الرسول –ﷺ– واتباع غير سبيل المؤمنين في استحقاق الإضلال ... وبهذا يتبيّن عظم شأن الرجوع لفهم السلف الصالح"[٣].

ويقول عبد الله بن مسعود –τ–: «من كان مستنّا فليستنّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد رسول الله –ρ– كانوا خيرة هذه الأمّة، وأبرّها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلّفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه –ρ– ونقل دينه، فتشبّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدى المستقيم"[٤].

إن سيرة سلفنا الصالح من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان هم نتاج دعوة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهم الثمرة اليانعة لشجرة الدعوة المباركة، وخلاصة جهد النبي –ﷺ–.

ولا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم عايشوا المصطفى عليه السلام، وعلموا منه مقاصد الدعوة ووسائلها، وكيفية تطبيق ذلك واقعيا، فطبقوه على من بعدهم من التابعين – بعد تطبيقه على أنفسهم – ونقلوه إليهم فأخذ هؤلاء عنهم وتعلموا منهم، وللفريقين – الصحابة والتابعين– سوابق مهمة في أمور الدعوة يستفيد منها الدعاة إلى الله؛ لأن السلف الصالح كانوا أعلم من غيرهم بمراد الشارع وفقه الدعوة إلى الله ، وما زال أهل العلم يستدلون بسيرتهم وطريقتهم.

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم ١١٨/٤.
(٤) شرح السنة للبغوى ٢١٤/١.

المطلب الثانى

نماذج من نقل الشيخ الجيلانى عن الصحابة والتابعين

ومن ثم؛ فقد كان الشيخ الجيلانى كثير الاهتمام بالنقل عن الصحابة والتابعين فى منهجه الدعوى، وكان الشيخ – أحيانا – يذكر القول ولا يذكر القائل، بل يقول – مثلا – : حكى عن بعضهم، وأحيانا يذكر القول وينسبه إلى قائله.

ومما يؤكد نقله عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ما يأتى:

– يقول رضى الله عنه: " عن بعضهم أنه قال: " عباد الله عز وجل الذين تحققت عبوديتهم له لا يطلبون منه دنيا ولا آخرة، وإنما يطلبون منه هو لا غيره ..... وعن بعضهم أنه قال: من يفعل الكثير كثير، ولا يترك الذنوب إلا الصديقون، الصِّديق يترك الكبائر والصغائر، ثم يدقق ورعه بترك الشهوات ثم المباح المشترك ..."[٥]

ويلاحظ هنا: ان الشيخ الجيلانى قد نقل عن السلف الصالح دون أن يسند القول إلى قائله، ولعل ذلك لعدم معرفة القائل، أو للاهتمام بالقول، حيث إن الرجال تعرف بالحق، دون العكس.

وفى كلامه يتناول حقيقة العبودية لله تعالى، ولا شك أن رتبة العبودية هى أكمل الرتب وأعلاها، حيث إنها رتبة الحبيب المصطفى والرسول المجتبى –ρ– التى لم يطلب سواها، فقد وصفه ربه بهذا المقام، فقال تعالى: ﴿ □ □ □ سم □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾[٦].

ومن أفضل ما مُثل به لمقام العبودية: أن تقدر أن عبداً اشتريته بمالك ، فكما تحب أن يكون عبدك معك، فكن أنت مع مولاك.

فالعبد لا يملك مع سيده شيئاً من نفسه ولا ماله، ولا يمكنه مع قهرية سيده تدبير ولا اختيار، ولا يتزيى إلا بزي العبيد أهلِ الخدمة ، ويكون عند أمر سيده ونهيه، وإذا كان حاذقا

(٥) الفتح الربانى والفيض الرحمانى، للجيلانى، المجلس الرابع عشر، صـ ٧١.
(٦) الكهف: ١.

فاهماً؛ عمل ما يرضي سيده قبل أن يأمره ، ويفهم عن سيده بأدنى إشارة ، إلى غير ذلك من الآداب المرضية في العبيد المؤدبين[٧] .

– ويقول – أيضا – رضى الله عنه: " ... هذه الدنيا بحر وإيمانك سفينتها؛ ولهذا قال لقمان الحكيم: " يا بنى الدنيا بحر، والإيمان السفينة، والمَلَّاح الطاعات، والساحل الآخرة ... وعن أبى يزيد البسطامى[٨] أنه قال: المؤمن العارف لا يطلب من الله عز وجل لا دنيا ولا آخره وإنما يطلب من مولاه .."[٩] .

ويلاحظ هنا: أن الشيخ الجيلانى رضى الله عنه قد نقل عن لقمان الحكيم، وهو من الأمم السابقة، إلا أن أقواله قد اشتهرت فى الثقافة الإسلامية، وقد حكى الله لنا فى القرآن الكريم نصائحه لابنه، بل سمى سورة كاملة باسمه.

كما نرى الشيخ الجيلانى قد نقل أيضا عن أبى يزيد البسطامى، واستشهد بأقواله، وهو من التابعين. وقد نسب الشيخ فى هذه العبارة الأقوال لأصحابها.

وقد ضرب الشيخ الجيلانى مثلا للعلاقة بين الدنيا والإيمان، فصوَّر الدنيا بالبحر المتلاطم الأمواج، والإيمانَ بالسفينة التى من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق.

فالإيمان – فى منظور الشيخ الجيلانى – سفينة النجاة من بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض.

---

(٧) إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، مرجع سابق، صـ ٧٠.

(٨) طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، ويقال بايزيد: (١٨٨ - ٢٦١ هـ = ٨٠٤ - ٨٧٥ م) زاهد مشهور، له أخبار كثيرة، نسبته إلى (بسطام) بلدة بين (خراسان) و(العراق) أصله منها، ووفاته فيها.
ينظر: طبقات الصوفية للسلمى، صـ ٦٧ – ٧٤، وفيات الأعيان ٢٤٠/١، ميزان الاعتدال ٤٨١/١، الأعلام ٢٣٥/٣.

(٩) الفتح الربانى والفيض الرحمانى، للجيلانى، المجلس الخامس عشر، صـ ٧٣.

- ويقول – رضى الله عنه – فى موضع آخر: " .. قال الحسن البصرى[١٠]:

أهينوا الدنيا؛ فإنها – والله – لا تطيب إلا بعد إهانتها "[١١]

وهنا ينقل الشيخ عن الحسن البصرى وهو من كبار التابعين وفقهائهم، ويصور لنا حقارة الدنيا، وضرورة البعد عن تعلق القلب بها، فإن من تعلق بها لم يلتفت إلى مولاه، ومن تعلق بالله؛ أتته الدنيا وهى راغمة.

وهذا هو معنى إهانة الدنيا، وهو: أن تعرض عنها، وتتعلق بالله؛ فحينئذ تأتيك الدنيا وهى راغمة.

- ويقول – أيضا – رضى الله عنه فى إطار نقله عن السلف الصالح: « يا قوم أمعكم توقيع من الحق عز وجل بالحياة؟ ما أقل تدبيركم! من يعمر دنيا غيره بخراب آخرته؟! يجمع الدنيا لغيره بتفرق دينه، لو علم وتيقن أنه ميت عن قريب، حاضر بين يدى الحق عز وجل، وأنه محاسب على جميع تصرفاته؛ لأقصر عن كثير من أعماله، عن لقمان الحكيم أنه قال لإبنه: «يا بنى كما تمرض ولا تدرى كيف تمرض، هكذا تموت ولا تدرى كيف تموت »[١٢].

ويلاحظ فى كلامه: أنه يوبخ من باع آخرته بالدنيا، فيعمرون الدنيا بالقصور الفاخرة، والرياش الناعمة، ثم إنهم ينسون إنهم يعمرون دارا كتب الله عليها الخراب، والطآمة الكبرى

(١٠) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: (٢١ - ١١٠ هـ = ٦٤٢ - ٧٢٨ م) تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة. وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة. وكان أبوه من أهل (ميسان)، مولى لبعض الأنصار. قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء، وأقربهم هديا من الصحابة. وكان غاية في الفصاحة، تتصبب الحمكة من فيه، وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف، وقد سلم من أذاه. وأخباره كثيرة.
ينظر: تهذيب التهذيب ٢٧٣/٣، وفيات الأعيان ١٢٩/٣، ميزان الاعتدال ٢٤٥/١، الأعلام ٢٢٧/٢.

(١١) الفتح الربانى والفيض الرحمانى، للجيلانى، المجلس السادس عشر، صـ ٧٦.

(١٢) الفتح الربانى والفيض الرحمانى، للجيلانى، المجلس الثامن عشر، صـ ٨٧.

أنهم مع ذلك يُخَرِّبون دارا كتب الله تعالى لها البقاء، وأنها الحياة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿ لخ لم لى لي □ □ □□ □ □ □ □ □نم نى □ □ ﴾[١٣].

ولا شك أنه يقصد بكلامه: مَن شغلته دنياه عن آخرته، فاهتم بالدنيا على حساب الآخرة، أما من يهتم بالدنيا؛ لكونها فى يده لا فى قلبه، فلا يشغله الاهتمام بها عن طاعة مولاه، وفعل الواجبات عليه؛ فإنه – لا شك – خارج عن كلام الشيخ الجيلانى رضى الله عنه، وإن كان كُمَّل الصالحين يزهدون فى الدنيا بصفة عامة، سواء فى أيديهم أو قلوبهم، كما فعل سيدنا المصطفى ﷺ، فإنه عرضت عليه الجبال أن تكون له ذهبا؛ فأبى-ρ-[١٤].

فكان زهد النبي ﷺ زهد مَنْ علم فناء الدنيا وسرعة زوالها، وقلة زادها وقصر عمرها، يقينه بأن الآخرة خير وأبقى، وأن ما أعده الله لأوليائه أعظم وأكبر، فاعتزل قلبُه الدنيا، ولم يأخذ منها إلا ما كان من أجل نشر دين الله ورسالة الإسلام، وهو الذي عرضت عليه الدنيا وتزيّنت له وأقبلت إليه، ولو أراد جبال الدنيا أن تكون ذهبًا وفضة لكانت.

فقد علم ﷺ المعنى الكامل لقوله تعالى: ﴿ □ □ نى ني □ ير □ □ ين □ □ □ □□ □ بج بح بخ بم ﴾[١٥].

– ويقول – أيضا – رضه الله عنه: " يا غلام إنما يتبين لك علم الله عز وجل فيك إذا رجعت إليه بكل قلبك وهمك، ولازمت باب رحمته، وجعلت بينك وبين الشهوات سدا من حديد، وتجعل القبر والموت نصب عينى رأسك وقلبك، وتراقب نظرات الحق عز وجل إليك، وعلمه بك، وحضوره عندك .. فإذا دمت على هذا؛ لقى قلبك ربك، فحينئذ تتكشف الأشياء لك، ترى عين العين، وتصير كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا. وقيل له: هل رأيت ربك؟ فقال: لم أكن أعبد ربا لم أره.[١٦]

---

(١٣) العنكبوت: ٦٤.

(١٤) ولفظه: " عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا. فَقُلْتُ: لَا. يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ ".
أخرجه أحمد فى المسند – حديث أبى أمامة الباهلى، ٥٢٨/٣٦، رقم ٢٢١٩٠، والترمذى فى سننه – كتاب الزهد – باب ما جاء فى الكفاف والصبر عليه، ١٥٣/٤، رقم ٢٣٤٧، وقال الترمذى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(١٥) طه: ١٣١.

(١٦) ذكره الغزالى فى (الإحياء ٣٠٨/٢)، وذكر أنه من كلام عامر بن عبد الله.

وهنا نقل الشيخ عن الصحابى الجليل سيدنا على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ما يؤيد كلامه، فى ضرورة رجوع العبد فى كل حركة وسكنة إلى ربه، ويراقب نظرات الحق عز وجل إليه، وعلمه به، وشهوده له؛ فحينئذ يصل السالك إلى مقام الإحسان، الذى قال فيه حضرة المصطفى -^-: « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[١٧] .

- وكان الشيخ الجيلانى رضى الله عنه يستشهد بكلام الصالحين السابقين، فيقول فى سياق متصل: " وسئل بعض الصالحين: هل رأيت ربك؟ فقال: لو لم أره لتقطعت مكانى. فإن قال قائل: كيف تراه؟ فأقول: إذا خرج الخلق من قلب العبد، ولم يبق فيه سوى الحق عز وجل؛ فإنه يراه ويقربه كما يشاء، يريه باطنا كما أُرى غيره ظاهرا .. يرى صفاته، يرى كراماته وفضله وإحسانه ..."[١٨]

فهذا الكلام عن أحد الصالحين فسره الشيخ الجيلانى؛ مما يعطى للداعية منهجا فى ضرورة الوقوف على كلام الصالحين وأهل العلم وتأمله، ومحاولة استخراج كنوزه ودقائقه.

- وكان الشيخ الجيلانى – أيضا – يذكر مناجاة الصالحين لربهم، فى إطار النقل عن التابعين والصالحين، حتى يرقق قلوب المدعوين، ويشحذ همتهم، فيقول: " .. كان فتح الموصلى[١٩] يقول فى مناجاته لربه عز وجل: إلهى إلى متى تردنى وتحبسنى فى الدنيا؟ متى تنقلنى إليك حتى أستريح من الدنيا والخلق.."[٢٠] .

---

(١٧) جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه – كتاب الإيمان – باب سؤال جبريل عليه السلام للنبى ﷺ، ١٩/١، رقم ٥٠. وتمام الحديث: " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ". قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: " مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ " ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: «رُدُّوهُ» فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ"

(١٨) جلاء الخواطر فى الباطن والظاهر، للجيلى، صـ ٢٦، ٢٧.

(١٩) محمد بن الحسين بن أحمد، أبو الفتح الأزدي: حافظ من أهل الموصل. سكن بغداد، وله بعض المصنفات، توفى سنة (٣٧٤ هـ = ٩٨٤ م).
ينظر: شذرات الذهب ٨٤/٣، وفيات الأعيان ٢١١/٥، الأعلام ٩٨/٦.

(٢٠) جلاء الخواطر فى الباطن والظاهر، للجيلى، صـ ٣٧.

- وكان الشيخ الجيلانى – أحيانا – ينقل كلام الصالحين ثم يعلق عليه، فيقول فى ذلك: " رُئى عند بعض الصالحين كلب، فقيل له: لم تركت هذا عندك؟ فقال: هو خير من قرين السوء.

كيف لا يحب الصالحون الخلوة وقلوبهم قد امتلأت بالأنس بربهم عز وجل وكنفه عليهم؟!..»[٢١]

فيلاحظ أن الشيخ – رضى الله عنه – قد نقل كلام الصالحين، فى الخلوة بالله، والأنس به، ثم علق عليه بما يدل على المراد.

والأنس بالله مقام عظيم من مقامات الإحسان، الذي قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[٢٢].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعليقا على الحديث : « فهذان مقامان :

أحدهما : الإخلاص ، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه.

الثاني: أن يعمل العبد على مشاهدة الله بقلبه، وهو أن يتنور قلبه بنور الإيمان»[٢٣].

يشير ابن رجب – رحمه الله – بكلامه هذا إلى منزلة المراقبة ، ومقام المشاهدة أو المعاينة كما يسميه بعض أهل العلم.

فـ" المشاهدة " ناتجة عن معاينة آثار أسمائه وصفاته تعالى في الكون ، بحيث يترتب عن ذلك تنور القلب وتعلقه بالرب ، وهذه المنزلة هي التي قال عنها النبي عليه الصلاة والسلام : " أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ "، فهي رؤية حُكْمية .

أما " المراقبة " فهي العلم واليقين باطلاع الحق سبحانه على ظاهر العبد وباطنه ، وهي التي قال فيها عليه الصلاة والسلام : « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» .

---

(٢١) المرجع السابق، صـ ٤٤.
(٢٢) سبق تخريجه.
(٢٣) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس – ابن رجب الحنبلى – ط دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠١م، صـ ١٣٤.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله بعد كلامه السابق : « يتولد عن هذين المقامين : الأنس بالله ، والخلوة لمناجاته وذكره ، واستثقال ما يشغل عنه من مخالطة الناس والاشتغال بهم »[٢٤] .

فمنزلة المراقبة إذا تحققت في العبد حصل له الأنس بالله تعالى .

ووجه ذلك: أنه إذا حصلت المراقبة يحصل القرب من الرب سبحانه، والقرب منه جل وعلا يوجب الأنس به تعالى.

- كذلك كان الشيخ الجيلانى – τ– يحكى عن الخلفاء والأمراء، فى إطار تأسيس منهج دعوى قائم على اقتناص الحِكَم والفوائد، والانتفاع بالحق دون الالتفات إلى مصدره، فيقول: «حكى عن أمير المؤمنين المعتصم بالله[٢٥]، أنه قال وقت حضور وفاته: والله إنى تائب إلى الله عز وجل مما فعلت فى حق أحمد بن حنبل، مع كونى ما تقلدت من أمره شيئا، وغيرى كان المتقلد لذلك »[٢٦] .

ونرى كذلك استخدام الشيخ الجيلاني القصة فى خطابه الدعوى؛ لما لها من أهمية وقوة تأثيرية فى نفوس المدعوين، ومن ذلك ما يأتى:

- يقول –τ–: « عن عيسى عليه السلام أنه كان إذا شم رائحة طيبة؛ سد أنفه، وقال: « هذا من الدنيا» ، هذا حجة عليكم، يا مدعين الزهد بأقوالكم وأفعالكم قد تلبستم بثياب الزهاد وبواطنكم ملأى رغبة وحسرة على الدنيا ! »[٢٧]

---

(٢٤) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، صـ ١٣٤.
(٢٥) لم أقف على ترجمته
ينظر: شذرات الذهب ١٣٤/٢، وفيات الأعيان ١٥٤/٤، الأعلام ٤٥/٣.
(٢٦) الفتح الربانى والفيض الرحمانى، للجيلانى، المجلس الثانى، صـ ٢٥.
(٢٧) الفتح الربانى والفيض الرحمانى، للجيلانى، المجلس الخامس والعشرون، صـ ١١٤.

ففى هذا الموضع أراد الشيخ الجيلاني أن يستدل على فساد من ادعى الزهد فى الدنيا ولبس لباس الزهاد، ثم هو يحزن على ما فاته منها، وإذا حصل له ابتلاء بفقد مال أو ولد؛ جزع قلبه، واعترض على قضاء الله وقدره، فاستدل على ذلك بموقف سيدنا عيسى الذى يدل على كمال زهده فى الدنيا، حتى إنه لا يريد أن يشم رائحة منها وإن كانت طيبة.

- ويقول –τ–: « من غلب رجاؤه خوفَه تزندق، ومن غلب خوفُه رجاءه قنط، والسلامة فى اعتدالهما، قال النبى –ﷺ–: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه اعتدلا»[٢٨]. وعن بعضهم أنه قال: رأيت سفيان الثورى بعد موته فى المنام فقلت: ما فعل الله عز وجل بك؟ فقال: وضعت إحدى قدمى على الصراط والأخرى فى الجنة »[٢٩].

وهنا – أيضا – يستدل الشيخ الجيلاني بأقوال وحكايات السابقين من العلماء. وهو يدل على أن الداعية ينبغى أن يستدل فى خطابه الدعوي بكلام العلماء وأقوالهم؛ حتى يؤتى خطابه ثمرته.

- ويقول –τ–: « إذا سمعت من الرسول ﷺ وعملت بقوله، وأحسنت العشرة معه باتباعك أصحابه؛ قدَّمَ قلبك إلى ربك عز وجل، وأسمعه كلامه، متى تحققت طاعة الله وعبوديته له، قدره على سماع كلامه.

موسى عليه السلام جاء إلى قومه ومعه التوراة، فيها أمر ونهى، فقالوا له: ما نقبل منك حتى نرى وجه الله، ونسمع كلامه! فقال لهم: إنى ما أرانى وجهه، فكيف يريكم وجهه؟! فقالوا: إذا لم يرنا وجهه فأسمعنا كلامه، فأوحى الله عز وجل إليه: قل لهم: إن أرادوا أن يسمعوا كلامى فليصوموا ثلاثة أيام، فإذا كان اليوم الرابع فليتطهروا ويلبسوا ثيابا

---

(٢٨) ليس من كلام النبى ﷺ، بل أسنده أبو نعيم فى (الحلية ٢٠٨/٢) إلى مُطَرِّفٌ أنه قال: " لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لَوُجِدَا سَوَاءً لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ"، وأسنده البيهقى فى (شعب الإيمان ٣٢٧/٢، رقم ٩٩٥) إلى شعبة، حيث قال: لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ، مَا زَادَ خَوْفُهُ عَلَى رَجَائِهِ وَلَا رَجَاؤُهُ عَلَى خَوْفِهِ.

(٢٩) الفتح الربانى والفيض الرحمانى، للجيلانى، المجلس الخامس والعشرون، صـ ١١٦، ١١٧.

جددا طاهرة، ثم ائت بهم حتى يسمعوا كلامى، فأخبرهم موسى بذلك، ففعلوا، ثم جاءوا إلى الموضع الذى كان يناجى فيه ربه عز وجل من الجبل – وكان قد اختار سبعين رجلا من علمائهم وزهادهم – فخاطبهم الحق عز وجل فصعقوا كلهم، وبقى موسى عليه السلام وحده، فقال: يارب أَمتَّ خيار أمتى؟ وبكى، فرحم الله بكاءه، فأحياهم فقاموا على أرجلهم، وقالوا: يا موسى لا طاقة لنا على سماع كلام الله عز وجل، فكن أنت الواسطة بيننا وبينه، فكلم الله عز وجل موسى ، وهو يُسْمِعَهُم ويعيد عليهم قوله.

إنما قدر على سماع كلامه بقوة إيمانه، وتحقق طاعته وعبوديته، ولم يقدروا أن يسمعوا منه لضعف إيمانهم، فلو قبلوا منه ما جاءهم به فى التوراة، وأطاعوه فى الأمر والنهى، وتأدبوا، ولم يجرؤوا على ما قالوا؛ لقدروا على سماع كلام الحق عز وجل »[٣٠].

وهنا يستدل الشيخ الجيلاني بموقف سيدنا موسى وقومه على أن الإنسان متى قوى إيمانه بربه، وصدقت عقيدته فيه سبحانه، أسمعه الله كلامه، فيكون وهو يقرأ القرآن كأنه يسمعه من رسول الله ﷺ مباشرة وإن كان بينه وبينه عشرات القرون من الزمان.

- ويقول الشيخ –τ–: « طالب القرب من غير عمل مهووس، موسى عليه السلام متى قَرّب؟ أليس بعد مقاساته للشدائد والمجاهدات؟ لما خرج من دار فرعون هاربا، وقاسى ورعى الغنم سنين، بعد ذلك رأى ما رأى ..لما قاسى الجوع والعطش والغربة وظهر جوهره وعلمت رحمته لبنات شعيب جاءه الخير بالمرؤه التى كانت فى قوته على خدمة غنمها، فلما سقى غنمهما أفرده الحياء إلى تحت الشجرة ومنعه من طلب الجرة على عمله ..حتى قال: ﴿تن تى تي □ □ □ □ □ □ ﴾[٣١] ، فبينما هو كذلك إذ جاءت بنت شعيب خلفه فحملته إليه، فسأله عن حاله، فأخبره بقصته جميعها، فقال: ﴿ير □□ ين □ □ □ ﴾[٣٢]، ثم زَوَّجَهُ ابنته، واستأجره لرعى الغنم، فنسى ملك فرعون ودلاله الذى كان فيه، لبِسَ لُبْسَ الرعاة، وكان الليل والنهار مع الغنم ، تعلمَ الزهد والخلوة عن الخلق، فتطهر قلبه منهم، ذهب ملك فرعون من قلبه، وخرجت الدنيا بجميع

(٣٠) جلاء الخواطر فى الباطن والظاهر، للجيلى، صـ ١٩.
(٣١) القصص: ٢٤.
(٣٢) القصص: ٢٥.

مَنْ فيها من سره، فلما قضى الأجل الذى كان بينه وبين شعيب عليه السلام عُتق ظاهره من العهد الذى كان عليه، وبقى عهد الله عز وجل وحقه على قلبه وسره، فلما ودَّعه وأخذ زوجته وسار ثلاث فراسخ من (مدين) أدركه الليل، وكانت زوجته حاملا، فضربها الطلق، وطلبت منه ضوءاً تستضئ به، فأخذ الزند ليقدح، فلم يخرج منه شئ، وأعتم عليه الليل، واشتد ظلامه، فجاءته الحيرة من كل جانب، وضاقت الدنيا برحبها عليه .. فوقف على علو من الأرض ينظر يمينا وشمالا، ووراء وأمام، حتى سمع صوتا ورأى نارا من جانب الطور، فقال لزوجته: اسكنى فقد رأيت نارا، فلعلى آتيك منها بقبس وأستعلم من أهلها خير الطريق، فلما أتاها نودى، لما قرب منها وأراد أن يأخذ منها شعلة، انقلب الأمر، ذهبت العادة وجاءت الحقيقة، نسى الأهل ومصالحهم، وجاء إلى زوجته مَنْ أكرمها، وجاءها بما يصلحها، نودى مناداة مناد، خاطبه مخاطِب، وهو الحق عز وجل بلا واسطة من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة، فصارت الشجرة قِبلة، قال يا موسى ﴿بن بى بي تر □ ﴾[٣٣] ، أى: لستُ بملك ولا جنى ولا إنسى، بل رب العالمين، أى: كَذَبَ فرعون فى قوله: ﴿ ٔ □ ﴾[٣٤] ، وفى ادعائه الألوهية دونى ...»[٣٥] .

ويلاحظ: أن الشيخ الجيلاني –τ– كان يعلق على القصة أثناء حكايته لها، ويقف على مدلولاتها، والدروس المستفادة منها، ثم يكمل القصة. وهذا المنهج أولى من ذكر القصة كاملة – لا سيما إذا كانت طويلة – ثم بعد ذلك يذكر الدروس أو يعلق عليها.

- ويقول –τ–: « ويلكم تدعون محبة الله عز وجل وتقبلون بقلوبكم على غيره! لما صدق مجنون ليلى فى محبتها ما كان يقبل قلبه غير ليلى، أقبل يوما على قوم، فقالوا له: من أين جئت؟ فقال: ليلى، فقالوا: إلى أين تريد نمضى؟ فقال: ليلى»[٣٦] .

---

(٣٣) القصص: ٣٠.
(٣٤) النازعات: ٢٤.
(٣٥) جلاء الخواطر فى الباطن والظاهر، للجيلى، صـ ٤١، ٤٢.
(٣٦) ينظر: الأغانى ٧٤/٢.

- إذا صدق القلب فى محبة الله عز وجل صار كموسى عليه السلام، حيث قال الله تعالى فى حقه: ﴿ حم □ خم ﴾[٣٧] ، لا تكذب، فما لك قلبان، بل هو قلب واحد، بأى شئ امتلأ فما يسع فيه شئ آخر، قال الله تعالى: ﴿ □ □ □ □ بر □ □ بن بى ﴾[٣٨] ، قلب يحب الخالق والخلق لا يصح، قلب تكون فيه الدنيا والآخرة لا يصح »[٣٩]

والحاصل: أن الشيخ الجيلانى قد أسس منهجه الدعوى، وجعل من أسسه: النقل عن الصحابة والتابعين والسلف الصالح بوجه عام؛ مما يعطى للداعية نموذجا من الداعية الذى يجمع فى درسه ومحاضرته بين الكتاب والسنة، وأقوال أهل العلم وآثارهم. والله أعلم.

---

(٣٧) القصص: ١٢.
(٣٨) الأحزاب: ٤.
(٣٩) جلاء الخواطر فى الباطن والظاهر، للجيلى، صـ ٢١.

قائمة المراجع

١- إحياء علوم الدين – محمد بن محمد الغزالي الطوسي – ط دار المعرفة، بيروت ١٩٩٩م.

٢- استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس – ابن رجب الحنبلى – ط دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠١م.

٣- الأعلام – خير الدين بن محمود بن محمد الزركلى – ط دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م.

٤- إيقاظ الهمم فى شرح الحكم – أحمد بن عجيبة الحسنى – ط المكتبة التوفيقية، مصر ١٩٩٩م.

٥- تحفة لمريد شرح جوهرة التوحيد – إبراهيم البيجوري – ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ.

٦- الجامع الكبير (سنن الترمذي) – محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى – ط دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٩٨ م.

٧- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري) – محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي – ط دار طوق النجاة، السعودية ١٤٢٢هـ.

٨- جلاء الخاطر فى الظاهر والباطن، عبد القادر الجيلانى – ط دار ابن القيم، دمشق ١٩٩٤م.

٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب – عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي – ط دار الجيل، بيروت ١٩٩١م.

١٠- الفتح الربانى والفيض الرحمانى – عبد القادر الجيلانى – ط دار الريان للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

١١- لسان العرب – محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري – ط دار صادر – بيروت ١٤١٤هـ.

١٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل – أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني – ط مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١ م.